

# ارنست همنجواي: حجت و وسط الموت!

للمناقشة ايمان كاشلين  
ترجمة سميرة عزام



في كانون الاول عام ١٩٥٤ كان ارنست همنجواي يقوم برحلة صيد جريئة في افريقية الوسطى فتحطمت طائرته على حدود الكنغو البلجيكية ، ولفترة مارشاع ان همنجواي قد لاقى حتفه ، ولكنه لما عاد الي نيروبي سالما وجد اكواما من الصحف حشدت بمقالات شتى عن موته فكتب يقول : « لقد اجمعت كل تلك المراتي او اغلبها على انني قضيت حياتي ابحت عن الموت ، وان الموت الذي طالما غازلته قد استطاع ان يظفر بي قريبا من كلمنجارو » .

وقد استمتع همنجواي فترة من الوقت ( بقراءة المراتي التي فيلت فيه ) الا ان صبره ما لبث ان نفذ ان قال محتدا : هل بوسع احد ان يتصور انسانا يداب طيلة حياته على السمي وراء الموت فلا يتمكن من نيله طيلة اعوامه الاربعة والخمسين ؟ ان مقارنة الموت ومحاوله التعرف عليه شيء ، والسعي اليه شيء اخر . فهو ايسر المطالب التي اعرفها مثلا . وقد اكد همنجواي في الكلمة على انه يرى نفسه - في الاحلام على الاقل - انسانا بالغ المرح والذكاء ، شقوفا بالحياة والناس الطيبين ، وبناته وزوجه ، وبالصيد ، وبالكتب الجيدة ، وبالشراب والقصص المرحه .

ومع ذلك فان التلميحات العديدة في المراتي تلك ، تشير الى ان جنوح مزاجه نحو موضوعات الموت والصف لم يكن امرا عرضيا اطلاقا . فهذه التلميحات ليست الا صدى لقالات تفصح عناوينها محتواها من قبيل ( شريعة الموت ) و ( همنجواي والموت ) و ( مشاعل العنف ) وقد ظهرت عام ١٩٢٢ ، ثم ظهر عام ١٩٤٧ مقال بعنوان ( العنف والنظام ) وكلها ، كما قال اندريه موروا ، مكرس لتناول ظاهري الموت والعنف في اعمال همنجواي . فالتقاد لم يتنازوا بعنوان بعض قصص همنجواي مثل ( القتل ) و ( موت بعد الظهيرة ) و ( من قتل قدامي محاربي فلوريدا ) فحسب ، بل انهم تأثروا بفحواها ايضا ، ففي هذه القصص يبدو همنجواي كمن يسلم باننا نلاص الموت حتى ونحن احياء ، انه لا يستطيع الا ان يستشعر الموت في مظاهر الحياة التي تحيط به ، فالمرتبة بالنسبة لدوره كراصد فني على الاقل ، هو احد الموضوعات الرئيسية للفن الذي يسجل مظاهر انحلال العصر .

فاي الفريقين كان على صواب ؟ همنجواي ام كتاب مرانيه ؟ يخيل الي لاول وهلة ان الكتاب هم الذين كانوا على حق . اذ لا تكاد اعمال همنجواي تخلو من موضوعات العنف والموت ، قد يكون السبب راجعا الى ان همنجواي نفسه قد خاض حربين عالميتين ، وحربين صغيرتين ( مع ان احدهما كانت ذات اهمية عالية من حيث انها كانت اول معركة مع الفاشية في اسبانيا ) وقد جعلت الحرب همنجواي يرى الموت قناعا او هالات بطولية ، وبالتالي قد وجه الشرس اخذ همنجواي يعالج الموت الذي تصطنع له الوسائل ، كمظهر اجتماعي غريزي في هذا العالم .

لقد عزف همنجواي في الجبهة فظافة العالم الذي يريد حل جميع وجوه الصراع فيه بواسطة الحرب ، عالم الذئاب الذي يناصر كل فرد من افراد الفرد الاخر .

لقد شهدت الاعوام التي تلت الحرب الكونية الاولى تمرد وانفلات ما يسمى بالجيل الضائع ثم ارتداد هذا الجيل جزئيا الى مهادة المجتمع .

وباحساس هذا الجيل بانسحاقه وعجزه نتيجة تجربة الحرب التي خاضها ، ويتخوفه من ازمات اخرى وشيكة الوقوع وقع ابتاؤه ضحية لمرض العصر الاجتماعي .

ونتيجة لمعاناة افراد هذا الجيل وفراغ قلوبهم تملكهم الشغور باقتراب شيء ما من النهاية .. انتهاء الامل والرجاء في الحياة . ولقد اقترب همنجواي في الاعمال التي انجزها في تلك الفترة اكثر ما يكون من الفلسفة الانحلالية لبعض شخصياته النافهة . لقد اكتسب شهرة عالمية « كشاعر الجيل الضائع » وسواء كان ذلك منه عن وعي او دون وعي ، فقد طرح همنجواي نموذجا ادبيا يحتذبه ادباء ادنى منه فنا .

بعد النجاح الكبير الذي اصابه بعد صدور اولي مجموعاته القصصية ورواياته الاوليين عاش همنجواي مرحلة مهادنة، فكشف عن معالجة موضوعات التسكين الاغنياء الذين كان قد فضحهم دون رحمة، وبدأ يتردد على حلقات مصارعة الثيران في اسبانيا ، وذهب الى الصيد في افريقيا ، وازاول صيد الاسماك ، واستقر في فلوريدا ، ولم يكن يكتب شيئا يذكر خلال فترة سبع سنوات .

وفي اوائل الثلاثينيات - وهي فترة الهبوط المالي الفظيع - انصرف كثير من الكتاب الاميركيين الى معالجة الموضوعات الاجتماعية ، فسي حين ان استجابة همنجواي لتطلبات الحياة الجديدة ، كانت بالغة البطء اذ كانت سموم الجيل الضائع ذلك الجيل الذي تعود الاعراض عن الحياة اذ شعر بفظافتها - ما تزال تسري في شرايينه .

لقد حاول عدم التفكير في تلك الحياة ، ولكن الصمت كان عسيراً ايضا . وكوسيلة للتفريغ اخذ يتحدث الى نفسه كفتان ، وتخفف من

كثير من هذه الاعياد بالكتابة عنها .

وعندما حاول همنجواي ان يفهم ماذا كان يجري في العالم ، توصل الى النتيجة المرة التي عكسها في روايته « نلوج كلمنجارو » عام 1936 ومهما حاول « هاري » (X) الكاتب الذي يعاني من سكرات الموت ان يعزي نفسه بفكرة انه ليس الا مجرد جاسوس في بلاد الاغنياء الاغنياء ، تلك البلاد التي سيتركها حالما ينتهي من الكتابة عنها ، فانه رغم ذلك يظل رهينة في مخيم اولئك الذين يشاركونهم الشراب والقنص والتحدث في الفن .

ان ادراك هاري لفداحة الثمن الذي دفعه قد اتى متأخرا جدا ، ذلك لان الثمن كان موتا جسديا ومعنويا وفنيا في ان واحد . ان موت الكاتب هاري ضرب من التطهير الرمزي ، اذ ينفض به عنه جلدا ميتا ، ومع ذلك فلا سبيل هنالك الى الحياة سواء للبطل ، او للكاتب .

وفي الوقت نفسه كانت الحياة تتجاذع انعزالية همنجواي مذكرة اياه بفضول عنف جديدة ، فهو كمخبر صحفي قد استنفذ كل ما يمكن ان يقال عن الموت المفجع لجنود فلوريدا ، وعن مجازفات موسوليني في الحبشة ، وعن المراحل الاولية للحركة الثورية في اسبانيا ، فكان ذلك كله بمثابة السهم الاخير ، فلما وقع التدخل لم يعد بوسع همنجواي ان يستكين الى الجلوس وراء مكتب ابداء . وقد حاول اكثر من مرة ان يسحق القلق الصحفي في نفسه فلا يقضي على موهبته ككاتب . فقد عرف بالتجربة اية جراحات عميقة يخلفها طلب الصحافة الاميركية الى مراسلها بان ينسى يوميا ما قد حدث بالامس ، ان ينساه باكثر من طريقة ، الا ان همنجواي ما زال يشعر بان شيئا في داخله يلح عليه بان يشترك في الحياة الحققة وكان هذا النفاذ الى عالم الحقيقة هو الذي اترى موهبته ككاتب ، واعاده الى معالجة المواضيع التي كانت هامة انذاك .

ان الحياة في عالم يقوم على قوانين خسيصة من ابتزاز المال وإجتراح العنف والموت ، لهي حياة قاسية . وخصوصا بالنسبة لمن هم فرانس للظلم الاجتماعي ، فقد كان ابرز ما تذكره « نك ادامز » بطل قصصه القصيرة الاولى من ايام طفولته ، مظاهر النسوة الشريرة ، كالانتحار في قصة « المسكر الهندي » وجلد الزوج ، والمشاهد الوحشية في الحياة اليومية في كتاب « في عمرنا » والمناوشة مع « القنلة » ، تلك المناوشة التي صرح ( نك ) على اثرها بضعف : ( اني تارك هذه المدينة )

ان اعمال رجال العصابات ، والقنلة ، واحكام الموت ، واعمال القتل تملأ قصص همنجواي الاولى ورواياته التي صدرت فيما بعد مثل « من يملك ومن لا يملك » To have and have not

و « لن تفرح الاجراس » وهي تحفل باحداث الموت والخوف والعنف ، اي بالموضوعات نفسها التي عالجهما كثير من الكتاب الذين رصدوا مظاهر انحلال العصر ، ابتداء من ادجار الان بو و امبروز بيرس وفوكنر وميلر ، وانتهاء بواضعي ومصوري القصص الهزلية .

على كل حال ان ما نمى به هنا هو ليس نوعية الموضوع الذي تكتب عنه فحسب ، بل كيف تكتب عنه ، واي موقف تتخذ .

ان جهود همنجواي قد تركت في جملة قضايا كان يعود اليها مرة بعد مرة فاستطاع ببطء ومثابرة ان يضع منها اشكالا مجسمة ينفذ اليها مرة اخرى من زاوية جديدة سعيا الى مزيد من الوضوح ، والى النظر اليها بعيني البطل نفسه الذي شخص تحت اسماء مختلفة المراحل المختلفة لسيرة المؤلف وابناء جيله .

كانت الحياة بالنسبة لهمنجواي شيئا لا ينفصل عن الموت ، بل هي صراع متقابل يتغلب فيه ابطاله لا على الخوف من الموت فحسب ، بل على الخوف من تفقدت الحياة والتفكك الذي يهدد الفرد . ان الحياة هي الحياة الحققة ، وهي العمل والقوة الخلاقة التي

تمد البطل بالقوة للصراع .

قد لا يكون الهدف النهائي للصراع واضحا لديه دائما ، وقد لا يتمكن احيانا من ايجاد حل صحيح للواجبات المباشرة ، ولكن النقطة الجديرة بالتسجيل هي ان مشاكل الحياة الرئيسية تبرز مرة بعد مرة في كتبه ، ومن خلال هذه المشاكل تبرز فضيلة العمل المنشط الملهم ، وكانت هذه الفضيلة هي التي ساعدت همنجواي وبطله جيك بارنز على الانفلات من الحلقة المفرغة التي كان يدور فيها متسكمو الجيل الضائع . وتشمل تلك القضايا ايضا الصراع من اجل حياة لائقة ، ذلك الصراع الذي لم ينفرد بحمل اعبائه افراد مثل شخصيات هاري مورجان ، وفيليب رولنجز ، وروبرت جوردان فحسب ، بل شاطرهم مسؤولية حملنا رجال حرب العصابات الاسبان ايضا .

وقد كان لتضامن الشرفاء من النساء والرجال الوافدين من مختلف البلاد يحظ من القضايا التي عالجهما همنجواي ، وافضل صورة لذلك التضامن برزت في قصته السينمائية « الارض الاسبانية » كما ان فكرة همنجواي بان الحياة ذاتها يجب الا توفر بحجة ادخالها لقضية اعظم كانت تتلامح في كثير من اعماله الادبية ، كما تتلامح فيها ايضا قضية الانكسار السطحي الذي يخفي انتصارا داخليا على المستوى المعنوي كما يتمثل في شخصيتي ال سورودو والشيخ سانتياغو ، او الهزيمة المؤقتة والنصر النهائي على المستوى التاريخي كما تتمثل في كتابه « موتى الاميركيين في اسبانيا » .

في معالجة هذه القضايا ، وفي التغلب على الصعوبات والشكوك ، ينمو ابطال همنجواي وتتبدل فكرتهم عن معنى الحياة شيئا فشيئا حتى تتطور . ان صراع الناس العاديين في سبيل حياة لائقة واتجاهاتهم البسيطة الصريحة نحو الحياة والموت تقوم كمثال لشخصيات همنجواي الاكثر تعقيدا وتناقضا . فهم جميعا يواجهون مشاكل الخوف والعنف والموت ، ويجدون لها حولا مختلفة ، ولكن افضلهم يستمد الايد من الحياة والقوة والشجاعة .

ان البطولة والشعور بالواجب التي تجعل من جوردان مشابها لاييل سورودو تحل محل الشعور باللا مسؤولية الذي يتصف به ابناء الجيل الضائع ، كما ان الحركة التي تجعل من الشيخ سانتياغو مشابها لمبدعه همنجواي تحل محل قوة الاستمرار لدى ادول اندرسون .

وسواء كان ذلك بارادته ام رغما عنها فان همنجواي يبحث عن تأكيد الحياة متداخلة بالطبيعة على امل ان تخلد دوما في العمل الفني الذي يبذره الاديبي ، وفي النصر المعنوي للعمل البطولي الذي يخلده في خاطر الانسانية .

كتب همنجواي عام 1939 رسالة قال فيها :

« طالما كانت هناك حرب قائمة فانت دوما تتوقع ان تقتل ، وعليه فليس هناك ما تشغل به فكرك ، الا انني ما ازال حيا ، وعليه فان علي ان اعمل ، ومما لا ريب فيه انك اكتشفت بان الحياة امر اكثر عسرا وتعقيدا من الموت ، وان الكتابة امر لا يقل عن الحياة عسرا . ولكنني سأناثر ما وسعنتني الطاقة ، بالصدق الذي استطيت ، حتى اموت ، وامل الا اموت » .

من الممكن تفسير هذه الكلمات على هذا النحو : لقد واجه الكاتب في اسبانيا الجمهورية البطولة الواعية ، وقد بات من القوة بحيث يستطيع حمل اعبائها دائما ، ولذلك فقد استبدل شعاره الرواقي الكئيب ( اعمل او تموت ) بشعار لا يقل عن ذلك قطعيا وهو ( لا اموت حتى انجزه )

وفي جهاد الانسان لتأمين الحياة اللائقة لا بد له من وجود شيء يستند اليه ، وعليه ان يتغلب على العادات والتقاليد القديمة ، وان يتخلص من السلاسل المذهبية محتفظا بحريته الداخلية ، وان يرسخ الحياة بالحركة كامل ، كبطل ، كفتان ، عليه بشحن شجاعته للتغلب

(X) جيك بارنز هو الذي جسّد شخصية المعين في رواية :

(ولا تزال الشمس تشرق)

(X) بطل قصة نلوج كلمنجارو

على خوفه من الحياة وخوفه من الموت ، على السواء .

ان القوة بالتشبيث من حقلها يجب ان تكون قادرة عن صمد العنف ، وقد كان لهمنجواي ثارات قديمة على انفاشية ، فذكرى ما كان قد شاهده من قيام البوليس الايطالي باطلاق النار على الجنود اليوغسلافيين المسحيين من مدينة «كاربورتو» ، تلك العملية التي كان شاهد عيان لها فوصفها فيما بعد في روايته «وداعا ايتها الحرب» ، كانت ما تزال تراود مخيلته حتى وسط العمليات الحربية التي تتسم عادة بالضراوة ، وكان يرى فيها مثالا على وسائل الارهاب الفاشي ، فقال في خطاب الفاه في المؤتمر الثاني للكتاب الاميركيين بان «الفاشية كذبة مفتر كبير ، وليس من سبيل لسحق المفترى الا بالسوط» .

وحتى في المجالات التي كان فيها ابطال همنجواي يلجأون للقوة في محاربة العنف ، لم تكن قوتهم تحلو من انسانية ، وكانت قوتهم بمثابة رحمة افرغت من القسوة والضعف ، فانسيلمو الصياد كان يجد قتل دب امرا من الصعوبة بمكان ، الا ان «انسيلمو» رجل المصايبات كان يطلق النار على الفاشيين وهو يكي.

في قصته ( من يملك ومن لا يملك ) تسأل همنجواي كيف يسع انسانا بسيطا ان يصمد ، وكيف يسعه ان يواصل غيره من الناس البسطاء ويتضامن معهم . وقد اظهرت له الحرب الاهلية الاسبانية اناسا كهؤلاء كانوا اكفيا بحيث يصمدون ويرفضون العنف الفاشي . وهنا ايضا اكتسب معرفة افضل برفاق السلاح ، لقد كانوا رجالا شجعانا بسطاء وموهوبين ، تبنا قضية الجمهورية العادلة . رجالا احبوا الحياة ولكنهم كانوا على استعداد لبذلها ، وفي اسبانيا استطاع همنجواي اخيرا ان يجد المقولة الصحيحة للغلبة على الموت ولدى تذكره الرجال الذين صدوا تيار العنف الفاشي بارواحهم قال في قصته السينمائية ( الارض الاسبانية ) : «عندما كنتم صغارا احبتم الموت باهمية عظمى ، اما الان فقد فقد اهميته في عيونكم ، انكم تكرهونه بسبب انتزاعه الاعزاء من بينكم» .

لقد ثبت له ان محاربة الموت تبدو على احسن حالات نجاحها عندما يعالج الموت كظاهرة اجتماعية .

وحتى في كتاب ذي موضوع هو اكثر ما يكون تناقضا وجدلية وافتقارا الى الاحكام والكمال الفني تبدو انقلبه على الموت مقنعة تماما للسبب ذاته الذي يورده الكاتب في تصوره لجزء معين من الصراع ضد الفاشية مهما تكن تلك الصورة مشوهة او ذهنية .

ان فعاليات الفلاحين ، ونهاية رجال ال سوردو المفجعة ، ونسف الجسر ، واختراق اندريه خط النار لا يصال الرسائل قد رسمت كلها بقوة وشعور عظيمين ، رغم البساطة المنهاية التي تبدو عليها .

ان روبرت جوردان يمثل على نحو ما مرحلة اخرى من مراحل تطور بطل همنجواي ، اما تينانت هنري فكان فاقد الامل والعزاء اني انجه . وبهوت هنري مورجان وحيدا مع جريمته ، غير مخلف سوى العداوات . لقد مات بسبب من فشله في تحقيق كسب ذاتي ، وبالرغم من انه كان نصرا ممنويا ام واقعا . ولم يخرج في النهاية بغير شعور مرير بالخيبة والوحدة . وما هو اكثر اهمية من ذلك ان مورجان لم يكن احد هؤلاء المتشغين المتوحدين الذين كان همنجواي شغوفاً بهم ومع ذلك فقد نجح في التوصل الى الحكمة التالية : ان رجلا بمفرده غير مستطيع ان يحقق شيئا . ان مورجان هو احد تلك الشخصيات البسيطة التي جذبت باستقامتها همنجواي الا انها مع ذلك بقيت خافية عليه .

تبدأ رواية « لمن تفرع الاجراس » بالعبارة التالية تجري على لسان « جون دون » « ما من رجل يستطيع ان يكون جزيرة تتمتع بنعمة الاكتفاء الذاتي »

ان جوردان مثله مثل سائر شخصيات همنجواي المشابهة انطوائي غير اجتماعي ، فهو لا يخرج من عزلته الا بقصد الدفاع عن جميع فقراء ومساكين العالم ، وموته وحيدا ليس الا النهاية المفجعة لجميع من هم على شاكلته .

ان عقدة جوردان تكمن في ان الصبء كان انقل من ان يسوى على حمله ، فهو لم يكن الشخصية المناسبة للدور ، كما لم يكن بنفس مستوى الاحداث والمشاهد التي كان مفروضا في همنجواي ان يعالجها على ذلك الصمد المحمي .

ان الكلمة الختامية التي تقول « لا تحاول ان تعرف لمن يفرع الجرس فهو يفرع لك » هي كلمات دون . ولكن قد يكون همنجواي قد استوحى فكرة الجرس من الشعار الذي كان مرسوما على راية « فيلق لنكولن » والذي يمثل ظلا لصورة قد تكون للنكولن لابساً طافية اسبانية ، وقد بدت وراءه صورة « جرس الحرية » .

لم يكن بوسع همنجواي او بالحري بطله جوردان ان يحتفظ بعزلته وعدم اكرانه في الوقت الذي كان فيه الناس البسطاء الشرفاء يتقاطرون من جميع جهات الارض للدفاع عن شعب اسبانيا الباسل الشريف البسيط .

كما انه ليس بوسع القاريء ان يتحصن وراء شعور بصدمة الاكترات عندما يسمع جرس همنجواي يفرع ناعيا جوردان ، ولو لم يعد جوردان ان يكون صاحب تلك الشخصية التي عرفناها في الرواية ، وبالرغم من ان الرئيس يبدو وكأنه منبعت عن جرس متصدع .

لقد مات كل من جوردان وال سوردو ، ولكن ما اشد ما اختلفت لخطاهما الاخيرة ، فال سوردو لم يكن رافيا في الموت ولكنه كان يعلم ان موته ضرورة حتمية ، وفي ذلك نهاية مشكوكة جميعها وبداية خطه البطولي . ان كان يعمل في الجبال الى جانب رجال المصايبات بنفس الروح التي كان يقبل فيها على ( تعشيب ) حقل الحنطة ، محاولا ان يفتلح اكبر قدر من الاعشاب الطفيلية . كما كان جوردان يتحرق للوصول الى الاتجاهات نفسها ، فيحاول ان يتشبه بال سوردو وانسيلمو ولو كان ذلك مقتصر على مواجهته الموت فحسب . فيخاطب نفسه قائلا « كف عن التفكير ، فانت الان مجرد ناسف جسور » . ولكنه لسدى

## في الاسواق :

# موت سرير رقم ١٢

وقصص اخرى

تأليف غسان كنفاني

الثن ٢٥. ق.ل

\* ————— \*

منشورات مكتبة منيمنة للطباعة والنشر

منير حسن منيمنة واخوانه ص.ب. : ٢٢٩٦  
بيروت

قيامه بنسف الجسر تتخذ الامور منحى اخر . لم يكن للمؤلف من حاجة الى قتل جوردان ، ومع ذلك فان موت جوردان كان امرا حتميا . فيموت لا متافحا عن اسبانيا فحسب ، ولا عاملا على خلاص « مازيا » الفتاة التي يعبها ، ولكن من اجل نفسها ، وانجازا لواجب ممنوي .

ان العالم الجهم الذي نشأ فيه جوردان لم يعمل على تحطيمه ، ولا اضطره الى التعامل مع الضمير كما هي الحال مع هاري مورجان . ان جوردان يموت منتصرا نصر ممنويا لم يصبح جزءا من النصر المشترك او الهزيمة المشتركة . لقد حارب مع الجماعة ولكنه مات وحيدا . ولندكر اية صورة متكاملة للحياة تنطوي بموت سوردو . ان قبسول الانسان بالموت فكرة عسيرة سواء كان المرء خائفا منه ام لم يكن . ولقد تقبل سوردو الموت ، ولكن لم تكن ثمة عذوبة في تقبله بالرغم من انه كان في الثانية والخمسين ، ومصابا بجروح ثلاثة ، ومحاطا بالاعداء . لقد استخف بالموت فيما بينه وبين نفسه الا انه نظر الى السماء ، والى الجبال البعيدة ثم ارتشف جرعة من النبيذ رافضا موته وقائلا : « اذن كان لا بد من الموت ، ويبدو ان ذلك امر ضروري . ان بوسعي ان اموت ولكنني اكره ذلك . »

لم يكن الموت لعني شيئا له ، اذ لم يكن يحمل في ذهنه اية صورة له ، ولم يكن يستشعر خوفا منه . الا ان الحياة كانت بالنسبة له هفلا من الخنطة نعتت به الريح ، وصقرا يحلق في السماء . وجرة مترعة بالماء في حفن انشتر جوه تبين الدراسة ، وقد افرزت الخنطة وذري التبن . وهي حصان تركبه وقد ارحت مسدسك على احد فخذيك ، وتل وواد وجدول ذو اشجار ظليلة على الصفتين وقد لاحت التلال والطرف الاقصى من الوادي عن بعد .

وهكذا فان ال سوردو يرى قبل موته كل مظاهر الحياة التي عاشها : العمل ، الفرح ، الحرية . انه يموت مفتاح العينين ، ولكن باحساس حاد بتكامل الحياة حتى ليتمكن القول بانه قد عاش حتى النهاية « حيا وسط الموت »

فماذا كانت الحياة بالنسبة لجوردان ؟ انه ليصعب تمثل حياته ككل . فهي تشكل مزجا من الفكرة التحريية « بان العالم مكان جميل مستحق التصارع من اجله » ومن الرغبة في الاشتراك في هذا الصراع ومن افكار عن كتاب يشتهي لو يكتبه . وصور اولية لذلك الكتاب المنتظر من اصوات الحياة والوانها ، وروائع كوبا وغاليسيا وموطنه ميسولا ، وصور ما تفتأ تدور في فكره المشوش : انتحار ابيه وجده ، وجندي الحرب الاهلية الذي يدعوه جوردان على نحو ما ليحكم على تصرفاته الشخصية وجبه الاخير - الذي يدنو من ان يكون محض عطف - للفتاة الاسبانية « مازيا » ، وامور اخرى كثيرة مفقدة متناقضة غير مترابطة ، ادلهمت بفلسفته الرواقية الكئيبة حول تضحية غير ذات جدوى .

لقد كتبت رواية ( لمن تفرع الاجراس ) بعيد هزيمة الجمهورية في اسبانيا . وتوقف القتال مدة طويلة كما تبدى للكثيرين انذاك ، وابتدا محارب الامس يشعر بانه فقد مقومات حياته . لذلك لم يجد همنجواي سببا للابقاء على حياة جوردان ، كما لم يقو على تخيل العالم الجديد الذي قد يكون بوسع جوردان ان يجد لنفسه مكانا فيه . وفي حين يعرض همنجواي مأساة الفرد المتوحد فانه لا يسقط من حسابه بطولات الكثيرين ، ففي اوائل عام ١٩٣٩ عندما لم يبق في اسبانيا من رجال الفرق الاجنبية سوى اولئك الذين دفنوا في الارض الاسبانية ، كتب همنجواي مرئية يمتزج فيها الحزن بالامل للموتى الاميركيين في اسبانيا ، نشرها في مجلة « الجماهير الجديدة » ، وقد نصحت تلك المرئية بالايان بالمستقبل ، وبالشمب الاسباني والارض الاسبانية التي لا يمكن ان تقهر ، هذه الاستجابة القلبية قد يمكن ارجاعها الى الفكرة البسيطة التي لم تتأت لهمنجواي عرضا وهي : « بالرغم من موتك دون انتصار فسان تضحيتك لم تكن عبثا ، وسيكون النصر من نصيبك » . ويبدو ان

همنجواي قد وجد شيئا يستحق ان يموت المرء من اجله ، فلو اتيج لك ان تموت على الصورة التي مات عليها هؤلاء الرجال فان الموت الجسدي لا يعود يعني لك شيئا ، فيصبح بمقدورك ان تصيح وانت تلفظ انفاسك الاخيرة : « اين شوكتك يا موت » او ان تقول مرددا كلمات همنجواي الخاصة : « ان اولئك الذين توسدوا الثرى بشرف - وليس هناك من توسد بشرف يفوق شرف هؤلاء الذين ماتوا في اسبانيا - قد نالوا الخلود فعلا . »

انتهت الحرب الكونية الثانية بنتيجة لم تختلف عن النتيجة التي انتهت بها الحرب الاهلية الاسبانية ذلك ان الفائز الشريف الذي رآه همنجواي يقاتل في الجبهة لم يزل شيئا ، اذ حصل ثمار انتصاراته الانتهازيون وقناصر الفرص . فعبر عن غضبه وبأسه من نتائج الحرب في قصته ( عبر النهر وفي الغابات ) ، ومرة اخرى التجأ الى بسطاء كوبا يعايشهم ، وفي كوبا كتب رواية ( الشيخ والبحر ) .

تبدأ الرواية بجو من الانهزامية مالوف في كثير من اعمال همنجواي ، اذ يبدو ان التحس قد لازم الصياد الشيخ سانتياغو مدة طويلة بحيث ان شرعه القديم بقماش اكياس الدقيق بدا وكأنه راية تجسد معنى الهزيمة الدائمة . ولكن ذهن الصياد الشيخ الذي كان ما يزال متوقفا فيما يختص بعمله قد عام تحت تأثير السنين مما خفف من وطأة الامر عليه بعض الشيء . فلم يعد يحلم بالعواصف ، او بالنساء ، او بالاحداث العظمية ، او بالسماك الكبير ، او بالمعارك ، او بمباريات القوي ، او بزوجه . ولم يعد لديه من الاهتمامات سوى توفير خبز اليومى والتحدث الى الصبي عن مباريات البيس بول والحلم بالاسود الافريقية . ومع ذلك كان ما يزال مثابرا على مجاهدة الحياة . ولغرض التفطيش عن الاسماك الكبيرة كان سانتياغو كثيرا ما يوغل في عرض البحر الى مسافات لا تسمح طاقته بركوبها ، مصارعا سمك القرش بعناد كي يمنعه من افتراس الاسماك التي اصطادها . ولكننا نلمس من خلل عناد الصياد الفريزي نفمة جديدة ، اذ اعتاد همنجواي لسنين عديدة ان يردد فكرته الاثيرة المتلخصة في « ان المرء اذا ما اشترك في صراع ما فان عليه ان يربحه ، مع ان النصر غالبا ما ياتي متسرلا بشباب الهزيمة » . اما الصياد الشيخ فانه يعدل هذه الفكرة على النحو التالي : « ان المرء لم يخلق ليهزم ، قد يمكن سحق الانسان ، ولكن هزيمته غير ممكنة . ولكن التناقض ما يلبث ان يبدو مباشرة فالشيخ يبدو قدريا في فلسفته - الامر غير المألوف في شخصيات همنجواي ، اذ يقول الشيخ : « لا يهمني اي المتصارعين يقتل الاخر » ، وهذا ايضا يستتبعه تعجيد الشيخ لسماك القرش الذي اقبل يهاجمه .

وبمقارنة هذه الرواية بروايات همنجواي الاولى نجدنا اكثر طواعية ورقة وقبولا بالتسليم . اذ يعيش الشيخ بالنسجامة مع الجميع ، وهو محبوب من الناس البسطاء الذين يعايشهم ، فقد درج همنجواي قبلا على تصوير مواطن الضعف في اقوياء الرجال . اما الان فهو يكتب عن القوة المعنوية لدى صياد شيخ متداع . وهنا نلمس مزيدا من الايمان والاحترام للانسان ، ولكن الحياة نفسها كانت قد تقلصت الى الحدود الضيقة لرؤيا شيخ وحيد ، والغريب ان الخط الحاد الذي يفصل بين الاناس العاديين الذين يحبهم وبين بطله الرئيسي ، يلمس باكثر ما يكون في هذه الرواية ، ففي السابق كانت عواطف همنجواي وافكاره تتحيز بالدرجة الاولى للمثقف المتوحد الذي يحارب بشرف رغم انتقال الشكولة القديمة التي ينوء بها ، اما في هذه الرواية فهو يمنح جزءا من افكاره وعواطفه الى سانتياغو الشيخ . ان شخصية هذا الاخير تبدو اكثر تعقيدا من شخصيات الناس البسطاء الذين صورهم همنجواي في اوليات قصصه ، فسانتياغو يفكر بامور شتى خلال الرواية ، وهو كهمنجواي يعالج قضايا الشجاعة والفن ، وبالرغم من سوء طالع نراه لا يتنازل عن مهنته كصياد ، وهو لا يفتنح الا بكبير السمك ، يصطاده كما يجدر بالصياد الماهر ان يفعل ، فيتسرب الى ذهنه الشعور بهزيمة مقبلة شبيهة بشعور جوردان اكثر منه بشعور ال سوردو . انه يعلم بالاشياء

يسهل علينا ان نفهم بالتالي لماذا لم يعرف زملاء همنجواي السابقون في الحرب انفسهم في شخصيات الرواية .

ان كثيرا مما يفكر به جوردان بالاضافة الى تسامح المؤلف مع العدو بدعوى ان العدو يجب ان يلقي معاملة نبيلة ، كل هذا يعمل على تعزيز جو الرواية ، ولناخذ الفاشية مثلا على ذلك فنذكر ان كراهية همنجواي لتظاهراتها كانت عنيفة دائما ، الا انه كان بالغ العمى في تسامحه مع جنورها ، ولهذا السبب هوجمت الرواية بشدة لدى صدورها من قبل المحاربين القدامى في الفرق الدولية ، كما انتقدت بحدة في الصحافة التقدمية .

ان همنجواي ليفتقر الى الاستعداد لتفهم وتقبل حقائق العصر الكبيرة فهو يتجنب عمدا التزام اي موقف سياسي ، وقد قال عام ١٩٣٤ « ان اصعب مهمات الحياة هي ان تكتب بامانة عن البشر . اذ يتعين عليك اولاً ان تام بالموضوع ، عليك ثانياً ان تعرف كيف تكتب وكلا الامرين يحتاج اتقانه الى الحياة بطولها . وكل من يتدرب باتخاذ السياسة كمخرج لهو انسان مخادع ، ان ذلك امر سهل ، وكل منافذ الهرب بسيرة ، اما الشيء نفسه فصعب عسير . »

ان خطى افكاره بصدد السياسة واضح لنا ، ولا يحتاج تفنيده الى طويل جدل . اذ ليس هناك من عمل فني مهما سما بمستواه يخلد اذا ما انجز دون اعتبار للزمن او للسياسة السائدة . ونحن بالطبع لانقصد بالسياسة الدسائس الصغيرة ، بل نقصد بها الامور الكبيرة التي تؤثر في حياة الملايين من الناس ، فتجاهل هذه الامور يمتد من افق الانسان ، ولهذا السبب جاءت انسانية ابطال همنجواي كشيبة ورواقية ، وتلك هي الانسانية الغامضة لدى اولئك الذين ادانهم التاريخ .

وقد قال همنجواي في كلمة القاها في المؤتمر الثاني للكتاب الاميركيين « ان مشكلة الكاتب لاتتغير . وتتلخص في كيف يكتب بامانة ، ولدى

نفسها التي قد يحلم بها همنجواي صائد الاسود وما قد يفقده سانتياغو من استحقاق يربحه في التقيد والتلون الذي تسربلت به الرواية ، ان موهبة همنجواي الفنية هي التي تمكن للقاريء من الايمان بالصيد . ان الرجل الشيخ يلجأ الى الاستعانة بالشباب ، فالصبي الذي يحذب عليه كان سندا حقيقيا له . وبدونه يصبح الشيخ عاجزا ومحكوما عليه بالفاقة .

كان ابطال همنجواي السابقون - بالرغم من الاحاديث العارضة التي يتبادلونها مع الغير - لا يكادون في الغالب يتحدثون الا الى انفسهم - اما سانتياغو الشيخ فلديه الان شخص ما يورثه خبرته ومهنته ، وعلى هذا المستوى ينفذ في الرواية مجال للمستقبل . اذ يبدو همنجواي وكأنه يعود الى نقطة البدء ، ولكن بطريقة جديدة تماما . « يمضي جيل ويأتي جيل » . ومع ذلك فليست الارض وحدها هي المخلدة ، اذ يخلد ايضا الجهد الانساني كعمل منجز وكمهنة يتوارثها جيل عن جيل . ومع ان القصة تعالج موضوع الشيخوخة والعجز الا ان احدا من اشخاصها لا يموت على غير ماهو مالوف في شخصيات همنجواي . والنصر ، ولو كان نصرا على المستوى العنوي فحسب ، لا ينال في هذه الرواية الا بشن هو الحياة نفسها .

ان رواية « الشيخ والبحر » قد تكون محاولة لتجنب التناقضات المؤلمة لفترة ما بعد الحرب بالانتفات الى موضوع عالمي يكاد يكون مجردا من عنصرى الزمان والمكان . وموضوعه يتناول جهدا مقداما لنيل هدف عظيم الا انه بالغ المحدودية رمز اليه همنجواي بالسمكة الكبيرة . ان العرض الواقعي المحسوس لقطاع صغير من الحياة كهدف تتناوله القوى العظيمة ، يستقطب اهتمامنا كقراء . الا ان واقعية القصة يشوبها صباب مجازي ادى الى قيام تاويلات متعارضة لها .

ان اعمال همنجواي تفرس في الانسان حب الشجاعة والاخلاص للواجب ولكن بالنظر لانتفازها الى هدف نهائي يمكن ادراكه بوضوح فان ابطال همنجواي الرئيسيين - وحتى لو هم خاضوا غمار المعترك العام - يظلون مجرد رياضيين يشعرون بالوحدة ، فيستبدلون حقائق الحياة الكبرى بوقائع الرياضة الثانوية الالهية . ان همنجواي لا يؤمن بعقل وشرف الحضارة البورجوازية ، الا ان تهجمات عليها تنبعث من الماضي . فهو يستمد موضوعات مقالاته من اسبانيا المتخلفة ، وافريرية غير المتحضرة ففي رواية « لن تفرح الاجراس » نرى مظاهر الحياة القديمة التي تكاد تكون قلبية ، ونستمع الى احاديث المزارعين والصيادين من رجال العصابات ، اما « الشيخ والبحر » فتعالج مهنة صيد السمك القديمة مجرد كونها وسيلة لتوفير اسباب العيش الشحيح لفرد متوحد .

ان همنجواي ينكر القيم النفعية المفضوحة التي تسود اميركا الحديثة فيتوجه الى القيم الخلقية القديمة . وهو يسفه الازدهار القائم على النفاق والتقليدية طارحا شرعة خلقية من صنعه . وقد عرف التاريخ كثيرا من هذه الشرائع وكلها - على اختلاف تسمياتها - قد برهنت على تدليسها . ففي الامور والقضايا البسيطة الصغيرة لا يكون نمرة مجال للمجادلة في قيمة هذه القيم المعنوية ، اذ ليس من سبيل للاعتراض على انسان لكونه شريفا ، او شجاعا ، او واثقا من نفسه ، ولكن حالما تطبق هذه القواعد بصورة ميكانيكية على ماهو اكبر من ذلك من متطلبات الحياة فان عدم ملائمتها النسبية تتكشف لنا . وهذه القواعد التي تقتضي اتباع شرعة تجريدية غير رغبة غالبا ماتنطوي على تباين مع حقائق الحياة الكبرى .

ففي رواية « لن تفرح الاجراس » نجد جنبا الى جنب شهادة شاهد عيان ومشارك ، ومحاولة لتقييم الاحداث فيما بعد تقريبا لا يخفقه ضغط الظروف فنخرج باتهام او تقرير من وجهة نظر جد خاطئة . وغالبا ما تكون الاستجابة هنا ضربة مباشرة على العدو ، في حين ان اعادة التفكير في الاحداث نفسها تتممخض عن صورة جد مشوهة لتلك الحوادث ، وهنا

صدر حديثا

# أَيَا شَرِيفِيَّة

بقلم عبد الباسط الصوفي

قصائد رائعة للفقيه الذي

كان نسيج وحده في عالم الشعر

دار الآداب

الثلث ٢٠٠ ق.ل - ٢٧٥ ق.س

عوده على الحقيقة فان عليه ان يعرضها بطريقة تصيح معها جزءا من تجربة قارئها « ..

ولكن اذا لم يكلف الاديب نفسه مشقة البحث في ماهية الحقيقة العظيمة ، «ومن ضمنها السياسة » فانه يصيح عرضة للسقوط في الخطأ القاتل « انا جندي لانهمني السياسة التي اعمت كثيرا من الناس الطيبين قصيري النظر وجعلت منهم اداة لغايات الاخرين الشريرة » .

وقد سبق لهمنجواي ان كتب عام ١٩٢٢ يقول : « دعك من هؤلاء الذين يريدون انقاذ العالم ، اذا كان بوسعك ان تراه كاملا وواضحا . » ثم اناط بالكتاب واجبا مستقلا اذ قال « المهم هو ان تصمد وتتهي عملك وترى وتتعلم وتتفهم وتكتب عندما يكون لديك ماتعرضه » . ولكننا مع ذلك لا نفهم ماذا يجب ان يكتب الاديب، وكيف اذا بقي المعنى خافيا ، كما ان نتفهم لم توضح .

ان همنجواي نفسه قد قام بدور في محاولة انقاذ العالم من الفاشية وهو نفسه يقر « بان الجرس اذا ماقرع فانما هو يقرع ناعيا اياك » ، فاول اخذ المرء هذه الفكرة وعالجها بتوسع وطبقها على الحياة نفسها يرى انها تعني بان العالم الذي نحيا فيه هو ايضا العالم الوحيد الذي نحيا فيه انت وتعمل ، فاذا ما سمحت بدمارة فان عملك بالتالي يصيبه الدمار . ثم دعنا نسأل لمن تعمل انت ؟ ونقول اكثر من ذلك انك برفضك انقاذ العالم ، او بمجرد تصريحك بذلك الرفض ، تكون قد سلبت نفسك فرصة رؤية العالم كاملا وواضحا كما اراد لك همنجواي ، فتغدو محاولة التعلم عديمة الجدوى .

ان ما ياخذ همنجواي خطأ على انه « الحقيقة » يدفعه احيانا الى ادخال عنصر بشع غير طبيعي على اعماله ، وهذا العنصر لا ينشأ من طبيعة احلامه المفزعة وتوتر ذهنه فحسب ، بل لعله اسهام غير داع في تلك النزعة التي هي من سمات عصرنا ، نزعة الانحلالية في الادب الاميريكي الحديث ، ان همنجواي يتنكب احيانا في احساسه بالنسب فتبدو على اعماله مسحة من الطبيعة ، وهذا صحيح فيما يتعلق ببواكير اعماله على وجه خاص ، الا ان اعماله التالية لم تنتج من هذه المسحة ، ففي رواية « لن تفرغ الاجراس » نستمتع الى رواية لابلو الفوضوي عن قتل الفاشيين ، فلنلمس فيها قسوة مسرفة لا مبرر لها كما تبدو لنا غير حقيقية بسبب من حيادية بابلو .

ان حالة « شبه الموت » لعالم همنجواي الذي اعتاد الكتابة عنه قد خلفت لديه توترا في التعبير الفني ، نوعا من السبات في معالجة الموضوع ، نوعا من الخدر الذي يسربل الحوار . فشخصيات بواكير قصصه كانت كتومة ، اجاديتها عبارة عن متولوجيات داخلية ، وهي تجهد دوما حتى لاتفرط في كلامها ، يرد الواحد منهم بنفسه على نفسه . ومع ذلك فان هومهم كانت متماثلة بحيث يستطيع الواحد منهم ان يفهم

الاخر حق الفهم . اما التوتر الذهني فيبدو في الاهتمام بالبالسغ بالتفاصيل ، وبتكرار تحليل التجارب ، اذ هي تعلق الكاتب فيسمى الى التخلص منها باللجوء الى اقصى التوضيح . واول خطوة في هذا الاتجاه سمي المؤلف الى تقديم عرض دقيق للعالم الخارجي يتيح له التهرب من التفكير . وهذا يفسر لنا سر الصفحات التفصيلية الطويلة ، او الفصص التي تصالج المهارة المهنية او الرياضة والصيد والجندي . فان لم يتم له الهروب عن تلك الطريق لجأ الى الحوار ، يكتبه بمزيد من العناية التي تساعد على صرف الافكار المزعجة عنه .

ان لغة همنجواي هي من صياغة قلمه الخاصة ، الا انه يبدو لنا احيانا كمن يفقد نفسه وما تزال تعلق بثره المناق حتى الان اثار عيوب قديمة ، وقد ظهر في اثنين من كتبه الاخيرة ارتداد الى حالة التوتر القديمة . وفي قصته الفاشلة « عبر النهر وفي الغابات » حوار غائم وهزل مصطنع ، وحتى روايته « الشيخ والبحر » لاتخلو في بعض اجزائها من تكرار مزيج وترداد مطول لحوار داخلي ، وافراط فسي التفاصيل . ولا شك في ان الفضل في استنثارها باهتمام القارئ دون فتور يعود الى مهارة همنجواي الفنية الناضجة .

ان بعض موضوعات همنجواي الاثيرة متناقضة في حد ذاتها . متبدلة مع الوقت . الموت العنيف المفاجيء ، وخلاو الفنان ، « ولا يمكن الوصول الى العلود الا على المستوى الاجتماعي » ، والموت ليس مجرد موت ، بل الشعور المسبق به من قبل رجل حي ، والهزيمة حتى ولو نتج عنها نصر معنوي ، والقوة غير المستقلة لغاية وجيهة ، قوة العيب ومن هنا كانت مأساة الرجل القوي والفنان القدير هي نفسها المأساة القديمة للمهارة الفنية المسخرة لمذهب الفن للفن .

ومع ان همنجواي يعترف بانه يسمى مجدا نحو موقف حيادي متسام مجرد ، الا انه لا يستطيع ان يسكت رجل العصر في داخله ، ولا يسهه الا غربة الحقيقة بواسطة غربال من تجاربه الاجتماعية . وهو متناقض حتى في هذا ، فبطله الرئيسي يشعر بانه منجذب الى كل ماهو بسيط وكامل وواضح في حين ان همنجواي نفسه معقد مشتمت النفس ، واماسوي فهو في استجابته السريعة للاحداث او الامور الصغيرة غالبا مايشبت بانه يفهم حقائق الحياة العظمى ، غير انه في عظام الامور يكون عبدا للحقائق الثانوية ولما هو غير حقيقي !!

هناك كتاب « مجلون ! » يسمهم ان يكتبوا عن اي شيء ! . وهم راغون بما انجزوا . وليس لدينا مانقوله عن هؤلاء . وهناك كتاب لايمسكون عن الكتابة المرة تلو المرة عما هو هام في نظرهم . وهم يجيئون بمظاهر الحياة شريطة الا تتدخل في اعمالهم - اعمالهم كتاب - ولكنهم في الوقت نفسه يشعرون بالعميق لو ان الحياة - دون ان تتدخل في اعمالهم - تمر باعظم انجازاتهم من الكرام .. وهمنجواي واحد من هؤلاء !!

ان بعض ابطال همنجواي لانهزمون امام تعقيدات الحياة كمانويل جارسيا ، وبعضهم قد علق « بالطعم » كاوول اندرسون ، وحسري بهمنجواي ان يصنف مع الاولين . فهو حي وسط الموت .

ان امكانات الموهبة ، اذا هي لم تحتجب ، وكانت شغوقا بحب الحياة والناس ، لا حد لها . ومرة اخرى نعود لتتمنى لهمنجواي حظا سعيدا واستمرارية في الانتاج . اذ اننا واتقون من انه مايزال ينطوي على اكثر من كتاب واحد ، صادق وقوي وجريء \* !

\* هذه الدراسة واحدة من جملة دراسات لتقناد مختلفين تناولت فن همنجواي ، وصدرت في اذار ١٩٦١ « قبل وفاة همنجواي » في كتاب عنوانه « همنجواي وناقده » Hemingway and his Critics . اشرف على اعداده الناقد كارلوس بيكر . ولهذا دراسة مطولة عن همنجواي بعنوان « ارنست همنجواي : دراسة في فنه القصصي » نقلها الى العربية الدكتور احسان عباس .

## دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

نزار قاسم شاعرا واتسالا

لمحي الدين صبحي

للككتور محمد منور

لفصايا جديدة في ادبنا الحديث

لرجاء النقاش

في ازمة الثقافة العربية